الفلسفة البرجماتية
أصولها ومبادئها

الدكتور: علي عبد الهادي المرهج

المقدمة:

ظهرت الفلسفة البرجماتية على يد الأمريكي تشارلس ساندرس بيرس وعرفت بشكل واسع على يد الفيلسوفين وليم جيمس وجون دوي، ربطت هذه الفلسفة بين الفكر والعمل، ونادت بالقول ان (قيمة أي فكرة تكمن في فائدتها العملية) والجديد في هذا المبدأ هو وضع الفائدة العملية في المقام الأول، ويبدو هذا المبدأ الذي وضعه بيرس كمبدأ رئيس من مبادئ وضوح الفكر ومعناه، نتيجة منطقية لانعدام الحس التاريخي لدى الشعب الأمريكي، الذي يحاول أن يكون صانع مستقبل كحالة تعويضية عن فقدانه الجذر التاريخي، فأمريكا تحاول ان تؤصل حاضرها تجاه الماضي الأصيل للشعوب الأخرى، ولا سبيل أمامها لتحقيق هذا الهدف سوى بناء قاعدة معرفية تنطلق منها، وقد شكلت برجماتية بيرس تلك القاعدة التي أستقرأت حقيقة تفكير الإنسان الأمريكي، الذي لايسأل عن النشأة (الماضي) بقدر مايسأل عن النتيجة (المستقبل)، وقد أصبحت هذه القاعدة هي الميزة الأساسية التي تميز الفكر الأمريكي من الفكر الأوربي.

المشكلة هنا هي أن قاعدة (الآثار والنتائج العملية) هذه لم تعرف لدى الدارسين العرب بصيغتها عند واضعها (تشارلس بيرس)، بل عرفت بالصياغة التي وضعها لهم وليم جيمس وجون دوي. ذلك أن جهود الباحثين العرب في محاولتهم لنقل الفكر البرجماتي انصبت على ما كتبه هذان الفيلسوفان، فكان نصيب وليم جيمس وجون دوي من الدراسة والبحث والترجمة – لكونها مشهورين إعلاميا أو لكونهما تركا كتبا لا تتطلب سوى الترجمة المباشرة أو الاعتماد المباشر عليها – أكبر من نصيب زميلها (تشارلس بيرس) لذا ترجمت أعاملها، واعتمدت بشكل يكاد يكون كاملا في توضيح

معنى البرجماتية، وقد أصبح القارئ العربي يعرف البرجماتية من خلال ما كتبته هاتان الشخصيتان أو ما كتب عنهما من مؤلفات، اما بيرس الذي لم يترك لنا سوى أوراق غير منشورة ومقالات نشر ومقالات نشر مجموعة منها في الصحف – فقد ظل مختفيا خلف كلمة (مؤسس) البرجماتية، لكن فكر هذا الفيلسوف وجهده الأساس في بناء المنهج البرجماتي، ظل مجهولا لدى القارئ العربي.

لذلك سينصب جهدنا في هذا البحث لتوضيح معنى البرجماتية لغة واصطلاحا، وكيفية النشأة ودور بيرس في وضع الأساس الذي انطلق منه المنهج البرجماتي بالشكل الذي نعرفه، مع توضيح أن البرجماتية لها ما يميزها، بوصفها فلسفة معاصرة من حيث تأكيدها على عدم الأيمان بالأنساق الميتافيزيقية والأيمان بالقانون العلمي، وميلها الى تحليل المفاهيم والمصطلحات ونقدها للميتافيزيقيا..

البرجماتية: الماهية والمنهج

١. معنى البرجماتية:

البرجماتية لغة:

تعنى البرجماتية لغة:

- ١الأستشراق العملي و (البرجماتي) يعني العملي:
- ٢البرجماتية لفظ مشتق من اللفظ اليوناني (برغما Pragma) ومعناه العمل، وتأتي منه كلمة (مزاولة).

البرجماتية اصطلاحاً:

أما المعنى الاصطلاحي لكلمة البرجماتية فهو وبصورة محددة يطلق على أحد المذاهب الفلسفية التي ظهرت في أمريكا على يد تشارلس ساندرس بيرس (١٨٧٨م) وتطور على يد وليم جيمس وجون دوي، يقرر هذا المذهب إن ((العقل لا يبلغ الأ إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة أي الفكرة التي تحققها التجربة، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية)). وهذا إن النتائج أو الثمار المستحصلة هي التي تحدد قيمة أي فكرة، فهي التي تقطع الشك باليقين كما ترى البرجماتية.

أقسام الفلسفة البرجماتية:

تقسم البرجماتية كغيرها من المدارس الفلسفية الأخرى إلى عدة أقسام بتعدد فلاسفتها (على الرغم من أنها أتخاه في الفلسفة) فهناك:

١. برجماتية بيرس التي سنتناولها في بحثنا هذا.

٢. برجماتية جيمس التي سماها فيما بعد (التجريبية المتطرفة) فهو (جيمس) بعد ((كل ما تقوم عليه التجربة فهو حقيقي واقعي، وكل ما هو واقعي تقوم عليه التجربة)). الوعي عند جيمس تيار مستمر تجري تجزئته الى موضوعات وعلاقات بين الموضوعات. وذلك بفعل تدخل العقل، وهذه التجربة لا تجري بشكل اعتيادي وإنما تمليها مصالحنا وغاياتنا وربما مزاج المدرك كذلك.

٣. هناك نوع آخر من البرجماتية هي برجماتية دوي التي سماها باسم (الاداتية) Instrumentalism) أي إن (النظرية آلة وأداة للتأثير في التجربة وتبديلها، أو

المعرفة النظرية وسيلة لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالتها المباشرة)) فالنظرية الآلية تحسب (أن العقل آلة يستخدمها الإنسان للمحافظة على الحياة أولا وفي تنميتها ثانيا)) ويعبر عنها ذوي بالقول إن الاداتية (هي محاولة لتكوين نظرية منطقية دقيقة للمدركات العقلية والإحكام والاستنباطات في شتى صورها وذلك عن طريق البحث أولا في الكيفية التي يؤدي بها الفكر وظيفته في التحديد التجريبي للنتائج المستقبلية)).

٤. وهناك اتجاه في الفلسفة البرجماتية ظهر في ألمانيا وهو نوع متطرف من البرجماتية تأسس على يد فايهنجر (سمي فلسفة (الوهم) وهذا النوع يرى (أن المبادئ الرئيسية في العلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والأخلاق والدين والقانون مجرد أوهام، وعلي الرغم من أن الحقائق الموضوعية تنقضها إلا أنها مفيدة للعمل) ويبدو إن هذا الاتجاه لم يلق نجاحاً في ألمانيا نتيجة لوجود تيارات فلسفية كبيرة متجذرة في ألمانيا، فكيف لألمانيا إن تستقبل تياراً فلسفياً وافداً والفلاسفة الألمان هم أركان الفلسفة في العالم الحديث.

٥. أما النوع الآخر من البرجماتية فهي برجماتية شلر التي سماها (الإنسانية) أو المذهب الإنساني (Humanism) وقد ظهر المذهب في انكلترا في مدة مقاربة لظهور البرجماتية في أمريكا، ويتلخص هذا المذهب في إن (أدراك الإنسان إن المشكلة الفلسفية تخص كائنات بشرية، تبذل غاية جهدها لتفهم عالم التجربة الإنسانية وزادها في ذلك أدوات الفكر البشري وملكاته). فلسفة شلر هي فلسفة إنسانية يؤثر فيها الإنسان تأثيراً كبيراً، فالفلسفة عند شلر وجدت لحل مشاكل الإنسان ومعالجتها.

٦. ومثلما امتد تأثير البرجماتية إلى بريطانيا ظهرت أيضا في ايطاليا، حيث تبناها الايطالي الشاب باپني الذي قال عن البرجماتية بأنها (تكمن وسط نظرياتنا مثل الرواق أو الدهليز في فندق فهو يفضي إلى عدد لا حصر له من الغرف ويفتح عليها. ففي احدها قد نجد رجلاً منكباً يكتسب سفراً في علم الجمال، وفي الغرفة المجاورة لها قد نجد شخصاً ساجداً يدعو الله إن يهبه الإيمان والقوة وفي الثالثة نجد كيميائياً يبحث في خصائص أحد الأجسام، وفي غرفة رابعة نجد نظاماً من الميتافيزيقيات المثالية

في طور المخاض و الابتداع، وفي غرفة خامسة نجد من يثبت استحالة الميتافيزيقـــا. ولكن الرواق أو الممر أو الدهليز ملكهم جميعهم، ومن المحـــتم على كل منهم إن يمر خلاله أذا أراد طريقاً عملياً للدخول إلى غرفته أو الخروج منها).

وكذلك ظهر لهذا الاتجاه ما يماثله في فرنسا على يد برجسون صاحب الفلســفة الروحية، وقد كان الأخير من المعجبين أشد الإعجاب بآراء وشخصية وليم جيمس حتى إنهما كانا يتبادلان رسائل الإعجاب الفكري فيما بينهما، ويتبين من خلال هذه الرســائل موافقة برجسون لأغلب آراء وليم جيمس على الرغم من وجود بعض نقــاط الاختلاف في مذهبيهما حتى إن (جيمس قد صرح بتحوله إلى البرجسونية)، (كلا الفيلسوفين قــد أوليا اهتماماً للتطور البايلوجي ولكن بفرق، حيث كان برجســون أكثر بــيولوجيه من جيمس)، (الأ إن برجسون يقترب من البرجماتية كونه يعد العقل هو القــدرة على صنع الأدوات) فليس المهم عند البرجماتية العقل، بــل هو فعل العقــل وتأثيره وما يؤدي إليه بوصفه أداة في خدمة أغراض الإنسان.

٢ .البرجماتية: النشأة والتكوين:

<u>أصل البرجماتية:</u>

يرجع أصل البرجماتية إلى تشارلس بيرس، وقد نشــأ اصطلاح البــرجماتية (Pragmatic) في ذهن بيرس نتيجة (دراسته لكانط) فالانثروبولوجيا البرجماتية طبقــاً لما يراه كانط –كما يقول بيرس– (هي فلسفة أخلاق عملية، فالأفق البرجماتي هو تكييف لمعرفتنا العامة في التأثير على أخلاقــنا (١-٥) والفرق العلمي (Practical) عند كانط والبرجماتي (Pragmatic) عند بيرس هو انه عند كانط (ينطبق على القوانين الأخلاقية التي يعدها أولية (Apriori) أما العملي عند بيرس فينطبق على قــواعد الفن والصنعة التي تعتمد على الخبرة وتقبــل التجربــة) وقــد كانت غاية بــيرس من ذلك هو وضع تصورات واضحة تتلاءم وما يريده هو.

أن دراسة بيرس لكانط ارتبــطت بجانبــها العملي لأن بــيرس ومنذ طفولته وبتشديد من والده كان حريصا على إن يكون كيمياوياً مما ارتبط عنده بأن يميل في كبره إلى الاعتقاد بأن التجربة والمعمل هما الفاصل الرئيس في الحــكم على صدق الفكرة أو

كذبها، فالشخص الذي ما يزال يفكر باصطلاحات كانط – كما يرى بيرس – (يكون العملي (Praktisch)و Practicalو (البرجماتي٩ بمثابة الشيء ونقيضه، وينتمي أولهما إلى منطقة من الفكر لايستطيع فيها أي ذهن من طراز تجريبي إن يطمئن إلى صلابة الأرض التي تحت قدميه بينما الثاني يعبر عن الارتباط بهدف أنساني محدد، وابرز ملامح النظرية الجديدة (البرجماتية) هو الاعتراف بوجود علاقة لا تنفصم عراها بين الإدراك العقلي والغرض العقلي)، فالمدلول العقلي أذن لكلمة من الكلمات إنما يكون في تأثيرها على مجرى الحياة وإلا فلا يكون هناك معنى لهذه الكلمات ولا يوجد هناك داع لتداولها.

النادي الميتافيزيقي: ولادة البرجماتية:

لقد سعى بيرس ومنذ صغره وبمساعدة والده للسير في مجال البحث العلمي، ولقد كان جل تفكيره أن تصبح له مكانة في الفكر الأمريكي في يوم من الأيام، وربما كان هذا الدافع قد تولد عنده نتيجة شهرة والده آنذاك. وقد كانت بدايته في طلب الشهرة هي محاولته أن يجد له مكاناً كأستاذ في جامعة هارفرد ألا أنه لم يفلح في ذلك إلا لمدة قصيرة جداً، فما كان منه إلا أن يسعى إلى الشهرة والمجد العلمي من خلال طريق آخر وبمساعدة تشونسي رأيت. وبعد عشر سنين من تخرجه من جامعة هارفرد قام هو ومجموعة من الشباب المتحمسين والذين يطمحون إلى إن يحتلوا مكاناً في الفكر الحديث بتأسيس حلقة فكرية تولى قيادتها فيلسوفنا تشارلس بيرس، سميت هذه الحلقة (بالنادي الميتافيزيقي)، وقد كانت هذه الحلقة هي البذرة الأولى التي أثمرت ما يسمى الآن بـ (البرجماتية) وفي أحدى مذكراته يقول بيرس: (كان ذلك في أوائل السبعينات (١٨٧٠) عندما اعتادت جماعة منا نحن الشباب في كامبرج العتيدة، دعونا أنفسنا على سبيل السخرية وعلى سبيل التحدي (النادي الميتافيزيقي) لأن مذهب اللا أدارية كان عندئذ في أوج رواجه، وكان ينظر بازدراء شديد إلى كل شديد إلى كل الميتافيزيقيات، اعتادت الجماعة إن تلتقي أحياناً في غرفة مكتبتي وأحيانا أخرى عند وليم جيمس، ولعل بعض حلقاتنا القدامى في (العصابة) لن يحلفوا اليوم بأن يذاع على الملأ أننا كنا في شهوات الشباب على الرغم منة أن كل نصيبنا من شهوات الباب لم يكن سوى الشوفان المسلوق

واللبن والسكر في كل ورطة على المائدة المشتركة، فأما المستر هولمز فأعتقد انه لن فأعتقد انه لن يسوءه إن تقول إننا فخورون بأن تتذكر عضويته. وكذلك العالم الموقر جوزيف وارتر. ولقد كان نيكولاس سانت جرين من أكثر الزملاء الأعضاء اهتماما وشغفاً. وهو محامٍ ماهر ضليع في مادته، واحد حواريي بنثام. كانت قوته الخارقة في تجريد الحقيقة الحية من أثواب المصطلحات البالية هي ما لفتت اليه الأنظار في كل مكان، وكان يرى أهمية خاصة في تعريف باين (Bain) للاعتقاد بأنه (هو الشيء الذي يصبح الإنسان عل أساسه مستعداً للفعل (العمل) وغالباً ما كان يخض على أهمية استعمال هذا التحديد، وهذا التحديد. وهذا التحديد يرينا إن البرجماتية ليست إلا نتيجة له. ولذلك أميل إلى اعتبار (باين) الجد الأول للبرجماتية وتشونسي رايت وهو شخصية ذائعة الصيت في تلك الفترة. لم يكن ليتغيب عن اجتماعاتنا أبدا، وكنت على وشك إن اسميه (المايسترو) (أي قائد) الاوركسترا (الفرقة) ولكنه خليق بأن يوسف أستاذنا في الملاكمة الذي اعتدنا وخصوصاً أنا إن نواجه لكماته ولطماته القاسية مراراً وتكراراً..)

من الواضح إن تشونسي رايت من أهم الأعضاء في هذا النادي، وله أثراً كبيراً على بيرس ووليم جيمس، حيث كان (أستاذاً) صاحب مكانة مرموقة في دائرة أصدقائه في كامبرج وقد عده جيمس (أستاذا ضليعا في ميدان التفكير العلمي ويتقبل آرائه على اعتبار انه حجة مبينة في الدعوة إلى الأهداف والطرائق العلمية). وقد كان رايت من أشد المتشبثين بالفلسفة التجريبية، وربما كان هذا هو أحد الأسباب المهمة في أعجاب بيرس ووليم جيمس هذا الرجل.

كانت تدور في هذا النادي المناقشات والمجالات بين أعضائه، وقد حرص بيرس على أن يدون ما كانوا يتناقشون به خشية أن ينتهي الأمر إلى الحل دون أن يترك أي ذكرى مادية وراءه، (وقد حاولت – كما يقول بيرس– إن أكتب مقالاً عرضت فيه بعض الآراء التي كنت أحيدها دائماً عدد يناير)

٣.المنهج البرجماتي:

ارتبطت بداية المنهج البرجماتي بقاعدة بيرس القول المأثور كما تسمى (Maxim) (الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا قد يكون على علاقة بها وعندئذ

يكون ادراكنا لهذه النتائج هو كل مفهومنا عن هذا الموضوع)، هذه القاعدة التي عدت النتائج هي مقياس صدق الفكرة أو بطلانها، وبالتالي عدها بيرس الأساس في وصولنا إلى أقصى درجات الوضوح، لذا فهو لم يكتف بذكرها ذكراً عابراً، بل يعيد القول بها في أكثر من مكان بين كتاباته، فهو يقول (لكي نتأكد من معنى أي مفهوم عقلي، يجب ان نأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية التي يمكن ان تحصل بالضرورة من ذلك المفهوم ومجموع تلك النتائج بشكل المعنى التام لذلك المفهوم).

انطلاقاً من هذا القول المأثور أصبحت البرجماتية منهجاً في الفلسفة، ولم يتخذ فلاسفتها عند دخولهم مجال البحث الفلسفي طريقة فلسفية خاصة تجعل منهم بناة مذهب فلسفي متكامل قائم بذاته لا يقبل الزيادة أو النقصان كما فعلت المثالية أو التجريبية، بل إن المعرفة الإنسانية معرفة محددة ونسبية قابلة للتغير بتغير ظروف الإنسان، فجميع فلاسفة البرجماتية عدوا البرجماتية منهجاً وليس مذهباً فلسفياً، (فهي اتجاه لحل المناقشات الفلسفية والمنازعات الميتافيزيقية التي لولاها (البرجماتية) وبدونها ما كان يمكن لها إن تنتهي.. (فالمنهج البرجماتي) محاولة لتفسير كل فكرة ولادة المنهج البرجماتي هو ذلك الصراع بين التجريبية من جهة، والتي تخلص للوقائع الجزئية والأشياء المحسوسة والعقلية من جهة أخرى، والتي تعنى بالحاجات للإنسان، لكنها تتنكر للوقائع الجزئية والأشياء المحسوسة. وقد وجد المنهج البرجماتي إن كلا المدرستين يهمل جانباً ويهتم بجانب آخر، وكلا الجانبين مهمين، فجاء المنهج البرجماتي لكي يفي المطلبين (فهو ديني كالعقلين ولكنه في نفس مثل التجريبية شديد الإخلاص للوقائع الجزئية والأشياء المحسوسة)، فغاية المنهج البرجماتي هو توضيح الفكرة ومحاولة الوصول إلى حل النزاعات الميتافيزيقية. فالبرجماتية عدوة لدودة لكل تكلف أو رطانة، فالفكرة يجب إن تكون واضحة وذات معنى ولها ما يؤكدها في عالم التجربة، يعد المنهج البرجماتي كل الأفكار التي تطرح لمناقشة (قضية ميتافيزيقيا الوجود هي أما رطانة بدون معنى، أو لامعقولة، كلمة واحدة تكون معرفة بكلمات أخرى تظل هي بحاجة إلى كلمات أخرى من دون إن يكون هناك تصور واقعي قد تم بلوغه). ولذلك فأننا نرى إن بيرس يعد هذا النوع من البحث محض هراء ويجب ان يستبعد تماماً، وما يجب

إن يبقى من الفلسفة هو سلسلة من القضايا القابلة للتمحيص أو الاختبار بواسطة مناهج العلو الحقيقة القائمة على الملاحظة، فقيمة الفكرة بالنسبة للبرجماتية (ليست في الصور والأشكال التي تثيرها، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغييرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بنا، ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء في ذاتها لأننا نستطيع إن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق، فما جميع هذه الإحساسات إلا علامات ومعالم تقود العقل إلى التصرف والسلوك) فالبرجماتية (يولي ظهره بكل عزم وتصميم – إلى غير رجعة – لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترمين ... انه ينأى بعيداً عن التجريد وعدم الكفاية وعن الكلامية ويعرض عن التحليلات القبلية وعن المبادئ الثابتة وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة وهو يولي وجهه.. شطر الحقائق والوقائع، شطر العمل والمزاولة وشطر القوة). فالمنهج البرجماتي هذا المعنى هو (عودة إلى المشخص، والى الفعل، أهمية هذا المنهج يكمن في أنه قادر على تغير موقفنا من المشكلات الفلسفية أذا ما تخذنا منها دليلاً ومعياراً لسلوكنا وتفكيرنا وهو يحول النظرية إلى أدوات بعد إن كانت حلولاً لمعضلات، وتهمل السياق وأصل الفكرة وماهيتها والمعطيات والبنى والوظائف)، وهذا بحد ذاته يعد انعطافه وتغيراً في وجهة البحث الفلسفي نحو الإنسان جديد وترك ما هو نظري والاتجاه إلى ما هو عملي، يجمع بين الفكر والعمل محاولاً إن يجعل الأفكار قواعد للسلوك.

وبذلك تبقى البرجماتية اتجاهاً وليس مذهباً بالمعنى المألوف للكلمة، فهو (أي المنهج البرجماتي) (لايأخذ بصحة معتقداته أو مبادئ معينة على سبيل الجزم أو اليقين أنما يمكن اعتباره اتجاها يجمع بين عدد من المشتغلين في الفلسفة في أطار من شأنه إن يقارب بين مواقفهم إزاء تناولهم مشكلات الفلسفة التقليدية بالدراسة والتحليل).

<u>سمات المنهج البرجماتي:</u>

للمنهج البرجماتي سمات عديدة ، يمكن أن نوجزها بما يأتي:

١. يسعى المنهج البرجماتي لتفسير القضايا بحيث تكون هذه القضايا مطروحة على شكل جمل افتراضية قبل إن يكون بوسعنا اكتشاف معانيها البرجماتية.

٢. يتصف المنهج البـــرجماتي بـــكونه اتجاهاً عملياً عند وجود جملة افتراضية كخطوة أولى هو أن نســـعى كخطوة ثانية لتفحـــص مدى نجاح هذه الفكرة وتطبيقـــها عملياً و البحث عن قيمة هذه الفكرة بما تؤديه من عمل نافع وليس معنى هذا تمجيد العمل ذاته (فالقول إننا نعيش لأجل العمل فحسب بـــوصفه عملاً بـــغض النظر عن الفكرة التي ينفذها الفعل يعني القول انه ليس لها مدلول (فحوى) عقلي).

٣. اعتماد المنهج البـــرجماتي على التجربـــة، ذلك إن التجربـــة هي الخطوة الحقيقـــية الموصلة إلى (فلسفة نقية) (فالفرضية يجب إن تكون قابلة للاختبار بواسطة التجربـــة بقـــدر ما هي قابـــلة للعمل)، فالنتيجة تعطينا تمام اليقـــين فيما أذا كانت هذه الفكرة أو الجملة الافتراضية تؤدي إلى نتائج تعزز ثقتنا بـــتلك الفكرة أو سلبـــية فنهملها (فأي فرضية يمكن إن تكون مقبولة ... شريطة إن تكون قابلة للتحقيق التجريبـــي. وفقـــط بقدر ما تكون قابلة لمثل هذا التحقق وهذا على نحو تقريبي اتجاه البـــرجماتية) ذلك إن (الفكر ينبغي إن يفهم بصفته ما يشمل كل الحياة العقلية ولذا التجربة ســـتكون أحـــد عمليات التفكير) فالفرضية أذا لم تكن خاضعة للتجربة والاختبار.

٤. وقد أضاف (جيمس) إلى جانب هذه الصفات السابقة التي قال بها (بيرس) من قبـــله، بأن البرجماتية تعد نظرية في الصدق أو نظرية في الحقيقة، فقد أصبحت البـــرجماتية في الوقت تستخدم في معنى أوسع من المشـــار إليه، على اعتبـــار أنها تعني نظرية للحقيقة)، إذ كان جيمس قد خصص جزءاً من أبحـــاثه الفلســـفية للبحـــث عن نظرية الصدق و القول بأن الصدق مرادف للمنفعة، ومناداته بـــالنظرية الواقـــعية فالصدق بالنسبة لجيمس، (علاقة بين شيئين: فكرة وواقـــع خارج هذه الفكرة ولهذه العلاقـــة أساس هو الأساس التجريبي الحســـي لا المطلق المجرد). (فالحقيقـــي ليس ســـوى المطلوب النافع في سبيل تفكيرنا، تماماً إن الصحيح ليس ســـوى المطلوب النافع في سبيل ســـلوكنا) وتتضح نظرية الصدق البـــرجماتية عند (جيمس) أكثر مما هي عند (بيرس) الذي تتوضح عنده نظرية المعنى البرجماتية.

قواعد المنهج البرجماتي:

هناك قاعدتان في المنهج البرجماتي وضعهما (بيرس)، من خلالهما نستطيع ان نعرف أو نميز الفكرة الواضحة من الغامضة، الحقيقية من الباطلة، أو التي لها فائدة عملية تكمن في أمكانية التأثير في السلوك مستقبلاً من التي ليس لها ذلك التأثير وبيان ليست ذات معنى:

١. أذا أبدت أحدى العبارات العامة مقاومة، وإذا لم يقدم الشخص الذي يستخدمها تأكيداً على إن هذه الفكرة أو العبارة ذات فائدة عملية وان هذه الفائدة العملية يمكن لنا أن نتأكد من وجودها أذا أخضعنا العبارة إلى التجربة أو الملاحظة فيجب الحكم على العبارة بأنها خالية من المعنى.

٢. أذا كان التعريف أو الترجمة لعبارتين هاتين يؤدي إلى نتيجة واحدة فأن العبارتين تكونان مترادفين من الوجهة العلمية أو البرجماتية مهما اختلفنا في النواحي الأخرى. (فإذا كانت الأشياء تؤدي الوظيفة نفسها تماماً، فلنعبر عنها أذن بالكلمة نفسها، وإذا كان العكس فلنميز بينها..) ولم يختلف (جيمس) عن (بيرس) بالقول بالقاعدتين السابقتين ولكنه اختلف عنه في الصياغة اللغوية.

أ-أذا كانت لديك قضيتان، واعتقدت صحتهما معاً فانظر إلى تأثير كل منهما. إن اختلف سلوكك نتيجة اعتقادك بالقضية الأولى عن السلوك الناتج من اعتقادك بالقضية الثانية، أذاً فالقضيتان مختلفات، وإذا لم يوجد خلال عملي بينهما بمعنى لم يوجد خلاف في السلوك نتيجة اعتقاد الفرد بكل منهما فتأكد إنهما قضية واحدة بصورتين لفظيتين مختلفتين.

ب-أذا لم يوجد أي أثر عملي في سلوكك نتيجة اعتقادك بصدق قضية ما يختلف عن سلوكك نتيجة اعتقادك بكذبها فأحسب إن القضية لا معنى لها، بل لا وجود لها إذ أن دلالة الفكرة فيما ينتج عنها من السلوك.

وقد أصبحت هاتان القاعدتان اللتان وضعهما (بيرس) وتوسع في تطبيقهما (جيمس) أساساً لكل من يريد إن يتبع المنهج البرجماتي، وقد كان السبب الرئيس للقول بهاتين القاعدتين هو الصراع اللفظي القائم بين بعض المدارس الفسلفية حول قضية

معينة تكون فيها أحدى المدارس قد صاغت بطريقة تختلف عن المدرسة الأخرى على الرغم من أن هذه القضية هي قضية واحدة وان الوصول إلى حقيقتها يتم باتخاذ جانب سلوكي واحد، فمثال على المشكلة القائمة بين الواقعيين من جهة والمثاليين من جهة أخرى حول طبائع الأشياء، فهل للشيء الخارجي وجود مستقل عن الذات العارفة أو إن وجوده ليس إلا ما تعرفه الذات عنه؟ يقول الواقعي إن للشيء وجوداً مستقلاً خارج الإنسان سواء عرفه هذا الإنسان أم لم يعرفه، ويقول المثالي إن الشيء موجود في أدراك الإنسان له، ولو لم يكن هناك العقل الذي يدرك الشيء لما كان لهذا الشيء وجود، وطبقاً لما تراه البرجماتية فأن الخلاف في مثل هذه المباحث خلافاً ويجب إن نسأل عن نوع السلوك الذي يترتب على قول الواقعي ونوع السلوك الذي يترتب على قول المثالي إزاء شيء معين. فما الذي أجده من النتائج العملية في هذه المنضدة التي أمامي إذ صح قول الواقعيين منها، ثم ما الذي أجده فيها أذا صح قول المثاليين عنها؟ ما هو الاختلاف في التجربة العملية بين الرأيين؟ انه لا خلاف أذاً، فالرأيان على اختلافهما في اللفظ متحدان في المعنى. (فخداع من هذا النوع هو الاعتقاد خطأ فرقاً بسيطاً في التركيب النحوي لعبارتين هو فرق بين الفكرتين اللتين تعبران عنه)، (فإذا لم يكن ثمة فرق عملي يمكن تتبعه فالإبدال أذن يعني من الوجهة العملية نفس الشيء ومن ثم أي نزاع أو خصام بشأن هذه القضايا هو نزاع عقيم تافه معدوم الجدوى) فالمعنى الحقيقي لكل فكرة هو ما تتركه من نتائج عملية وآثارها المحسومة المستقبلية على السلوك، ويجب إن تكون هذه هي القاعدة الفلسفية الرئيسة التي بها تنتهي النزاعات القائمة.

٤. مميزات الفلسفة البرجماتية بوصفها معاصرة:

- ÇÒÍ di Êf Îmd Çte محاولة تجديد في الفلسفة حاولت حل الصراع القائم بين الفلسفة العقلانية والفلسفة التجريبية والفلسفات الأخرى، حيث تعد البرجماتية محاولة للحفاظ على الفلسفة وتصفية الجو الفلسفة المعاصر من المشاحنات والمجادلات التي تعدها (البرجماتية) مناقشات غير مجدية ولا توصل إلى حقيقة واضحة، فالمدرسة العقلانية مثلاً قالت أن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة واحتارت في البحث عن المطلق والقوانين الثابتة، أما التجريبية فقد قالت بأن الحس هو المصدر الرئيس

للمعرفة، وبذلك فالصراع القائم بين هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس الفلسفية الأخرى متعلق بالصراع حول ما هو كائن وليس بما سيكون، والحركة التوفيقية التي قامت بها البرجماتية لحل الصراع، هو نقل عملية التفكير إلى ما سيكون، أي البحث عن النتائج والآثار، فالفلسفة البرجماتية هي فلسفة النتائج وهي وسط بين المدرستين (فبوسعها أن تظل دينية كالمذاهب العقلية ولكنها في نفس الوقت مثل المذاهب التجريبية تستطيع إن تحتفظ بأخصب وأغنى صلة وثيقة بالحقائق والوقائع)، وكما كانت البرجماتية محاولة لحل الصراعات بين الإنسان لطلب المعرفة (فإذا أثبتت الأفكار اللاهوتية إن لها قيمة في الحياة... فهي نافعة)، فالبرجماتية بهذا المعنى (هي فلسفة تجمع بين الأمرين، الولاء العلمي للحقائق، وبين اليقين القديم في القيم الإنسانية والتقائية المحصلة سواء أكانت من النوع الدينين أم الرومانتيكي). في محاولة منها أن تبتعد بالفكر عن التجريد وان تحدث ارتباطاً وثيقاً بالعالم الواقعي، فالبرجماتية أصبحت بذلك محاولة للتجديد في الفلسفة وأصبح بذلك محاولة للتجديد في الفلسفة وأصبح موضوعها الواقع والإنسان كباقي الفلسفات المعاصرة التي انتقلت بالبحث من مشكلات الوجود إلى الإنسان وقضاياه وكيفية حل مشاكله، فقد كان جل اهتمام البرجماتية (منصباً إلى محاولة حل المشكلات التي تحدث في الحياة الآنسانية) وكيفية أيجاد حل لهذه المشكلات التي تنشأ عن تغييرات مستمرة في حياته (الإنسان) (فالمشكلات التي يجب ان تعنى بها أي فلسفة تصلح لوقتنا الحاضر هي تلك المشكلات التي تنشأ عن التغيرات الحاصلة بين طهرانيا بسرعة كبيرة متزايدة في نطاق جغرافي أنساني يتسع باستمرار يؤثر فينا عميقا يزداد شدة وتغلغلاً في صميم أحوالنا). فقد أصبحت المعالجة البرجماتية تبدأ من نقد الفلسفة من داخلها وإحيائها وإظهارها بثوب جديد يليق ومقتضيات الفكر المعاصر الذي يهدف إلى أن لا تكون الفلسفة معزولة عن الإنسان بل إن تقبل (مقولات الحياة بوصفها مقولات أساسية).

٢. نقد البرجماتية للميتافيزيقيا:

لما كانت البرجماتية هي البحث عن نتائج وتتبع آثار أية فكرة ومدى صلاحية هذه الفكرة عند الإنسان، أي فائدتها العملية، فكان من الطبيعي أذن إن يكون مجالها هو

الحياة وإلا يخرج عن أطار الحياة الإنسانية وان تبتعد عن البحث في مجال الميتافيزيقا ، ذلك إن الأخيرة تعتمد على أفكار مجردة ليس لها ما بطابقها في دنيا الواقـــع، فأفكار مثل (العالم واحد أو متعدد، مادي أو روحاني، مســـير أم مخير، هذه كلها أفكار قـــد يكون أو لايكون فيها خير العالم.. فإذا لم يكن ثمة فرق عملي يمكن تتبعه بالإبدال، أذاً يعني من الوجهة العملية نفس الشـــيء، ومن ثم فأن أي نزاع أو خصام بشـــأنها نزاع تافه معدوم الجدوى)، فيرى (بيرس) إن (طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط تصطنع على أســـاس فروض من عندهم ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب القطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه إلى براهين يصفونها بـــالصواب القـــطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية) فيما بـــعد وبـــذلك تكون الفلسفة البرجماتية ضد الأنساق الميتافيزيقية التي تبدو ركائزها قانون ثابـــت لا يقبـــل التغير.

٣. البرجماتية فلسفة علمية

يقول أحد العلماء (الإبداعات التكنولوجية تمر بثلاث مراحـــل مترابـــطة على شكل دائرة بحيث تقوي كل مرحلة منها المرحلتين الأخيرتين وهذه المراحل هي وجود الفكرة وإمكان تطبيق هذه الفكرة عملياً وانتشار الفكرة والتطبيق)، ولما كانت البرجماتية تدعو إلى الاعتقاد بفكرة وإخضاع هذه الفكرة إلى التجربة وكما تقـــدمه هذه الفكرة من فائدة عملية، فالبرجماتية تكون أذاً دعوة إلى تطبيق علمي للأفكار الفلسفية المطروحـــة، وقـــد كان للآراء البـــرجماتية دور مهم وصلت تاليه التكنولوجيا الأمريكية في يومنا ها يفوق ما كانت عليه في بدء تكوينها عشرات المرات، حـــيث قـــطعت أمريكا في مجال التطور العلمي أشواطاً كبيرة فائقة لم يعرف لها التاريخ مثيل في عصرنا الحالي، وقـــد كان الفلاسفة البرجماتيون أغلبهم ممن يشتغلون في مجال البحث العلمي، فيرى (بيرس) مثلاً كان يشتغل في الفيزياء والكيمياء والرياضيات عالماً محترفاً و (جيمس) يشتغل في مجال علم النفس، ونجد إن (دوي) يتجه إلى العلوم اتجاهاً كاملاً. يؤكد (بـــيرس) إن " طريقته هي طريقة العلم نفسها" والذي يجعل من فلسفة (بيرس) وغيره من البرجماتيين فلسفة علمية هو أنها " أذا ما نسبت إلى الكون حقيقة ما اعتمدت في ذلك على تأييد الوقائع

التجريبية" فالفلسفة البرجماتية" هي نمط من أنماط الفلسفة العلمية أي أنها لا تقبل بـــأن تكون الفلسفة مبنية على شكل نسق مختوم مقفل لا يقبـــل الزيادة ولا التعديل، بـــل تكون كالعلم في كونها سيراً متصلاً جديدة بقديمه بحـــيث لا يكون عناك أمر يقـــال انه الكلمة الأخيرة".

٤. البرجماتية فلسفة تحليلية ونظرية في المعنى:

من المميزات المهمة التي تتميز بـــها الفلســـفة البـــرجماتية كغيرها من المدارس الفلسفية المعاصرة هو اهتمامها بالجانب التحليلي للأفكار أو الكلمات أو المصطلحـــات فغاية الفلسفة البرجماتية أي تختلف كثيراً عن الفلسفة التحـــليلية التي تبـــلورت على يد فتكنشتاين (١٨٨٩-١٩٥١) من حيث اهتمام الأخيرة بتحـــليل اللغة وبتحـــليل المفاهيم وإعطاء ترجمة دقيقـــة وعلمية ومن ثم أعادة صياغة هذه الموضوعات أو المفاهيم ثانية بترجمتها إلى كلام أكثر ترتيباً وأكثر ترتيباً وأكثر سهولة، لذلك سعت البرجماتية إلى " الدقة في توضيح المعاني بمعنى أنها تجزئ الواقع وتحلله" فقد حرص (بيرس) أكثر من غيره من البرجماتيين على الوصول إلى أفكار واضحة حتى يتسنى لنا الاستفادة من هذه الأفكار، وحتى يكون لهذه الأفكار معنى وقد تجسد هذه الجانب لدى بيرس في مقـــالته " كيف نجعل أفكارنا واضحة " ونرى إن صاحب كتاب (عصر التحليل) مورتن وايت قد أدرج بيرس وجيمس ودوي ضمن قائمة الفلاسفة التحليليين في كتابه آنف الذكر.

المصـــادر

١. البعلبكي ، مدير: المورد، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٧، ص.

٢. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج١، ص٢٠٣: وكذلك أنظر: جيمس، وليم: البرجماتية، ص٦٥.

٣. الشنيطي، محمود فتحـــي: وليم جيمس، دار ألحـــمامي للطبـــاعة، مصر، ١٩٥٧، ص٩٢.

٤. جود، س ، ي، : مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ترجمة: محمد شفيق شـــيا، مؤسســـة نوفل، بيروت، لبنان، ط١٩٨١، ١ / ص٨٩.

٥. فام، يعقوم: البرجماتزم، دار الحداثة، بيروت ، ١٩٨٥، ص١٥٨.

٦. دوي، جون: نمو البرجماتية، مقال من كتاب فلسفة القـــرن العشـــرين، تأليف رونز واجبورت، ترجمة: عثمان نوية، دار الكتاب العربي، ص ٢٤٣-٢٤٤.

٧. فايجهنجر (١٨٥٢-١٩٣٣) فيلسوف ألماني، عمله الرئيس (فلسفة كان) ١٩١١.

٨. حنفي، حسن: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، مصر ، ١٩٩١.

٩. هو فردناند سكوت شـــلر Ferdinand Caning Scott ، فيلســـوف انكليزي ولد في ألمانيا عام ١٨٦٤ ومات في أغسطس عام ١٩٣٧ وزميل كلية كوركيس كريســـيتي في جامعة أكسفورد، وفي آخر حياته أصبح أســـتاذا للفلســـفة في جامعة كاليفورنيا الجنوبية.

١٠. شلر: المذهب الأنساني، نصوص مختارة من كتاب عثمان أمين: شـــلر ، سلســـلة توايغ الفكر الغربي، مصر، ص ١٣١ والكتاب نفسه، ص٤٨.

١١. للتعريف على محتوى هذه الرســـائل راجع كتاب (آراء وشـــخصية وليم جيمس) لمؤلفة رالف بارتون بيري، ص ٤٦٤.

١٢. بيري رالف بارتون: آراء وشخصية وليم جيمس، ترجمة: محـــمد على العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٤٦٦.

١٣. الاستخدام هنا لكتاب بيرس بحسب نظام الفقرة وليس نظام الصفحـــة فجاء الترتيب من اليسار الى اليمين، الجزء ثم الفقرة بهذا الشكل (١-٥) أي الجزء الخامس الفقرة الأولى، فهامش هذا النص يكتب هكذا (٥-١) collected Papers: Peirce وسنتبع

هذا النظام في جميع فصول الكتاب.

١٤. الاهواني ، أحمد فؤاد: جون دوي، سلسلة نوابغ الغربي، ص٨٦.

١٥. أحد مفكري ومثقفي أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر، شارك في تأسيس النواة الأولى للبرجماتية، ومات قبل ان ترى البرجماتية النور، تأثر به (بيرس) وكذلك (جيمس)